العمل قبل الغضب!

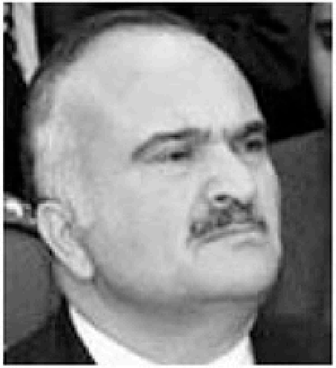

الحسن بن طلال
رئيس منتدى الفكر العربي وراعيه؛ سفير الإيسيسكو للحوار بين الثقافات والحضارات؛ منسق منظمة المؤتمر العالمي للأديان من أجل السلام

هذه أوقات عصيبة: «كان أحسن الأزمان، وكان أسوأ الأزمان؛ كان عصر الحكمة، وكان عصر الجهالة؛ كان عهد اليقين والإيمان، وكان عهد الحيرة والشكوك؛ كان أوان النور، وكان أوان الظلام؛ كان ربيع الرجاء، وكان زمهرير القنوط؛ بين أيدينا كل شيء، وليس بين أيدينا شيء قط...». (تشارلز ديكنز: قصة مدينتين؛ ترجمة عباس محمود العقاد) ففي هذا الجزء الملتهب من العالم، ينتابنا شعور عاصف بأننا نقف على شفير المواجهة مع القوى العالمية، سواء أكانت عسكرية أم غيرها. وقد غدا هذا الشعور طاغيًا؛ فلا يمكن تجاهله أو إغفاله. ويبدو أن العالم الغربي، حتى في جناحه الليبرالي، أدار ظهره للإسلام وأغلق قنوات الحوار مع أتباعه؛ ممهدًا بذلك الطريق أمام النزاع العسكري.

حتى الدول الاسكندنافية، التي تمثّل معقل الحرية، تهاوت أمام ضربات الخوف والانقسام والرّهاب. والعرب يتذكرون بكل تقدير واحترام جهود السويد النبيلة في المجالات الإنسانية وحقوق الإنسان، التي مثلها خير تمثيل الكونت برنادوت وداغ هامرشولد وغيرهما. كما يذكرون بالخير الدنمارك التي أرسلت أول حملة للتلاقي والحوار الحضاري إلى المنطقة قبل أكثر من قرنين. ولا ننسى النرويج بمساعيها في مجال ثقافة السلام، حتى أصبحت جائزة نوبل للسلام مقرونة بأوسلو والنرويج. لقد أصبحت هذه الدول، بأفرادها ومؤسساتها، تشكل أهدافًا لردود الفعل المتطرفة؛ في حين ترزح غالبية المسلمين في البلدان الإسلامية تحت وطأة القهر والشعور بأن هويتهم ذاتها تنتهك ليل نهار. المفارقة الكبرى أن رسالة الإسلام والأمة التي نعتز بالانتماء إليها هي السلام.

وكذا الحال في بريطانيا، التي تعد نموذجًا للتكامل بين الأديان والأعراق؛ فهي تشهد ضروبًا من القلق وعدم الثقة اللذين يفرضان قيودًا اجتماعية ومدنية على الأفراد. إن الأحداث التي وقعت فيها من المظاهرات في برمنغهام إلى التفجيرات الأخيرة في لندن هيأت الأرضية للمواقف المنفعلة تجاه الرسوم المسيئة للرسول (ص).

أما في فرنسا فلا يمكن تجاهل الأحداث العنيفة التي وقعت مؤخراً في باريس وضواحيها والتي نجم عنها عمليات تخريب وحرق ساهمت في تشكيل ردود الفعل تجاه تلك الرسوم. أضف إلى ذلك الوقائع العنيفة وردود الفعل التي اجتاحت سائر أوروبا والغرب.

أليست هذه إشارة إلى أن الكيل قد طفح بالنسبة لعامة الناس في شتى الأصقاع والبقاع، وأنه لم يعد بوسعهم تحمّل المزيد من اللطمات والكدمات؟ ولا يخفى أن لكثير من الحكومات دوراً أساسيًا في هذا التردّي المتفاقم. ففي أفقر بقاع العالم نلمس ارتفاع أعداد الشباب المسلمين العاطلين عن العمل، ما يؤدي إلى تولّد ردود فعل متطرفة، وإلى تزايد حدة العنف والغضب اللذين يغذيهما الخوف والقهر. من ناحية أخرى، لم يعد المجتمع الليبرالي راضيا بالحوار وفن المحادثة النبيل كوسيلة لمعالجة الخلافات والنزاعات.

إن ظواهر تهميش المواطن وإقصائه، وسوء إدارة الصالح العام والاستقطاب، والحديث عن «نحن» من جهة و«الآخر» / الغرب من جهة أخرى، تؤدي إلى مثل ردود الفعل هذه وتؤجج الشعور بالظلم والإجحاف. هنالك عجز في ميزان الكرامة البشرية والنزاهة لا يعالج إلا بتغيير في الأفكار؛ فلا نترك الأحداث تسيّرنا. لا بد من تعبئة الفراغ الفكري الذي نشهده والعمل على صياغة رؤى تنظم العلاقات بيننا وبين الآخر.

إذًا، ما العمل؟

لقد حان الوقت لكي نطالب الأمة باتخاذ موقف موحّد على أعلى المستويات. وقد نتفق على أنه لا يحقّ للغرب أن يملي علينا ما يجب فعله؛ لكن ذلك يحتم علينا، بالمقابل، تحديد الخيارات المتاحة أمامنا. فعلى القادة الروحيّين من كل المعتقدات والانتماءات اتخاذ موقف حازم يتمثل في الإدانة الصريحة لأي انتهاك لحرمة أي معتقد. بذلك نكمل الخطوة الأولى في عملية تستهدف إيقاف المزيد من العنف وتتضمن العناصر الآتية:

أولاً: لا بد من جعل الدين يسمو فوق السياسة. وعلى القادة السياسيين والروحيّين أن يضمنوا ذلك، حتى تحافظ الكنائس والمساجد وسائر المعابد على سلطتها المعنوية بعيدًا عن أي تدخل سياسي.

ثانيا: آن الأوان للجامعة العربية أن تنهض بدورها على الصعيد الدولي. صحيح أن وضع الجامعة ليس كما نشتهي؛ لكنها يجب أن تتجاوز نفسها كي يتسنى لها وضع استراتيجية لتجنب الأزمات. فدرهم وقاية خير من قنطار علاج. ولا بدّ أن يرافق الالتزام الفعلي من جانب القادة العرب دعم حقيقي وغير مشروط لتمكين الجامعة من تحقيق هذه الأهداف.

أخيرا: لا بد من تفعيل منظمة المؤتمر الإسلامي من أجل معالجة الأزمة الإيرانية قبل فوات الأوان. إن الصدام مع إيران لا يبدو بعيدًا. ومن الواضح أن العرب، الذين يمثلون خمس العالم الإسلامي، سيتضررون كثيرا إذا تفاقم الوضع وتعرضت إيران لضربة عسكرية. إن مهاجمة المنشآت النووية الإيرانية من شأنها أن تسبب زعزعة في استقرار المنطقة وأن تهدد السلامة البيئية فيها. وسيخسر العرب والإيرانيون لا محالة من بلقنة غرب آسيا.

لم يتوقع أحد أن تستمرّ الحرب العالمية الأولى أكثر من بضعة أشهر. كذلك اندلعت الحرب العالمية الثانية قبل أن تعترف البشرية - أو جلّها - بالخطر الداهم. أفلا نعتبر من هذه الدروس؛ فنتصدى لتلك الاحتقانات والتراكمات بكل ما أوتينا من حكمة عملية؟ ألم يحن الأوان للأغلبية الصامتة أو المصمتة في كل مكان كي تنتفض ضد العنف والتطرف؟

مرة أخرى، ما العمل؟

إن دعوتي هذه ليست فقط لإعلان النوايا؛ بل من أجل العمل السياسي المتمثل في تحقيق الاحترام لكل الأديان، ونبذ العنف، والترويج للتعايش السلمي بكل الوسائل المتاحة. يقول الله تبارك وتعالى: «ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدوا بغير علم». (صدق الله العظيم) [سورة الأنعام (٦)؛ الآية ١٠٨.

إنها دعوة لمواجهة تحديات التطرف والإرهاب والعنف من خلال العمل على درء الأخطار قبل وقوعها، وتجنب الأزمات والصراعات قبل أن نغرق في إدارتها. هي دعوة للعمل على تعميق قيم التفاهم والتعايش والاحترام، ونبذ الكراهية والأحقاد والانتقام.

وفي هذه الأجواء التي يسودها اليأس والقنوط، جاءت دعوتي إلى إطلاق مشروع «هيئة المئة مفكر مسلم»؛ وهي هيئة اقترحت أن تتألف من مجموعة من المفكرين الكبار من مختلف أرجاء المعمورة ومن خلفيات متنوعة. والفكرة أن يجد هؤلاء الحكماء في البحث والتصدي للقضايا الملحة التي تؤثر على المسلمين في العالم. ويهدف المشروع إلى تأكيد مبدأ تمكين المواطن من إجراء الحوار السلمي والنقاش الهادف؛ إلى جانب دعم مفهوم قوة الأفكار كوسيلة تساعد على تهدئة النزاعات والعثور على حلول للمشكلات التي تواجهنا. لقد أبرزت الأحداث الأخيرة، خاصة الجدل الدائر حول الرسوم المسيئة للرسول محمد (ص)، غياب القيادة الفكرية والأخلاقية والمجتمعية. ألم يحن الوقت للعمل الجاد قبل أن تجرفنا الأحداث؟

رئيس منتدى الفكر العربي وراعيه؛ سفير الإيسيسكو للحوار بين الثقافات والحضارات؛ منسق منظمة المؤتمر العالمي للأديان من أجل السلام.